بدوى وشبنجلر

د.منى يوسف

obeikandl.com

obeikandl.com

عني د. عبد الرحمن بدوى بإصدار عدد من الكتب فى سلسلة خلاصة الفكر الأوروبى حول عدد من فلاسفة الغرب من، بينهم الفيلسوف الألمانى شبنجلر الذى كان لكتابه «تدهور الغرب» Der Untergang Abendlondes صدى كبير فى أوروبا وقت صدوره فى بدايات القرن العشرين، حتى أنه صنف كأعظم مؤلف صدر فى النصف الأول من هذا القرن. حيث يعالج الكتاب جميع مواضيع الحضارات الإنسانية وإنجازاتها من فن وعلم وفلسفة ومذاهب وأديان. وذلك فى كل الحضارات التى أنشأها العقل البشرى، وذلك منذ بدء الخليقة وحتى صدور هذا الكتاب، ويتضمن الكتاب معلومات غزيرة حول هذه الحضارات، ومنجزاتها، وكثيرا من التفاصيل عن هذه الحضارات، مما يفسر كبر حجم الكتاب الذى يبلغ مجموع صفحاته فى الترجمة العربية له ألف وستمائة صفحة من القطع الكبير، ويحتوى جزؤه الأول على اثنى عشر فصلاً، وجزؤه الثانى على ثلاثة عشر فصلا.

يتضمن الكتاب العديد من الأفكار حول نشأة الحضارة وتطورها وانهيارها، ومظاهر هذه الحضارات وخصوصيتها، كما يحوى أيضا الكثير من الأمثلة حول الأفكار المطروحة فى الكتاب وتطبيقاتها على الحضارات المختلفة على مر العصور واختلاف الحضارات.

ويرى شبنجلر أن أفكاره تعد ثورة كوبرنيقية فى فلسفة التاريخ ،حيث يرفض التفسيرات السابقة عليه للتاريخ ويقدم لها تفسيرا جديدا، يرى فيه أن الحضارات هى مجموعة من الدوائر المغلقة، كل حضارة مستقلة بنفسها تبدأ وتتحقق بفعل روح أولية خاصة بها، ثم تموت وتنهار بعد أن تستنفد هذه الروح قدراتها، وتحقق كل ما تستطيع تحقيقه من منجز حضارى، سواء على مستوى البناء أو العلم الطبيعى أو الفكر أو الدين أو الفن، ونستطيع أن نلمح طبيعة هذه الروح الخاصة بالحضارة فى كل منجز من منجزاتها. فالبناء فى الحضارة العربية مثلا يتفق مع روح الدين الإسلامى، والفن التشكيلى الذى يتبدى فى رسومات الجوامع يتفق مع الدين الإسلامى وكل ذلك يتفق مع روح الشعر العربى الإسلامى، أى أننا نستطيع أن نرى

الروح العربية الإسلامية واضحة فى كل المنجزات الحضارية التى خلفتها هذه الحضارة، وما يقال عن الحضارة العربية الإسلامية يقال عن غيرها من الحضارات سواء كانت قديمة أو حديثة، فى الشرق أو فى الغرب.

وعندما يعرض د. بدوى لأفكار شبنجلر عن «تدهور الغرب» يتفاعل مع هذه الأفكار التى يبدو متأثرا بها، فهو يرى أن أفكار شبنجلر عن الحضارات تعد بالفعل ثورة كوبرنيقية لو قارناها بفلسفات التاريخ السابقة عليه، وتحت عنوان الثورة الكوبرنيقية يتحدث عن التاريخ والطبيعة كما رآه شبنجلر: فالطبيعة مجموعة من الحقائق، بينما التاريخ مجموعة من الوقائع، والطبيعة ثابتة متكررة الحدوث، بينما التاريخ متحرك ولا يكرر وقائعه فهى دائما متغيرة. ويتميز عرض الأفكار الخاصة بالتاريخ والطبيعة والتجربة الحية والتجربة الآلية بأن د. بدوى لا يكتفى بعرضه لأفكار شبنجلر فقط، بل يعرض لأفكار غيره من الفلاسفة الذين قدموا آراء حول هذه الأفكار من قبل، فهو يعرض لآراء كل من دريس وبرجسون عن المذهب الحيوى مما يعطى للقارئ فرصة للمقارنة بين الأفكار، كذلك يعرض لأفكار دلتاى ومذهبه فى العلوم الروحية، هو لا يغفل الحديث عن هيجل عندما يتحدث عن فكرة المصير، بل إنه يتتبع هذه الفكرة منذ نشأتها عند اليونان ثم عند شلر وهيلدرلن أو هيجل ونيتشه وزمل، ثم يعرض بعد ذلك لرأى شبنجلر حول فكرة المصير والحقيقة إن هذه الطريقة فى تناول الفكرة تساعد فى وضع الفكرة الرئيسية التى يتناولها المؤلف فى إطارها التاريخى، فالفكرة ليست جديدة ولكن النظرة إليها تختلف باختلاف المدارس الفلسفية التى تناولتها.

فالفكر اليونانى القديم مجّد المصير ورفعه إلى مرتبة الآلهة، لأن الآلهة أنفسهم خاضعون للمصير. ثم لعبت هذه الفكرة من بعد دورا خطيرا عند الرواقيين الذين حاولوا أن يوحدوا بين المصير و العقل باعتبار أن المصير هو العقل الكونى، وجاءت المسيحية من بعد فحاولت أن تحد من سلطان المصير، لأن المسيحية تمجد بنوع خاص فكرة الحرية سواء بالنسبة إلى الله أو بالنسبة إلى الفرد، ولهذا قالت بعكس ما قالت به الروح اليونانية، إن الله فوق المصير، أما قوى المصير الموجودة فى

الكواكب فإنها شياطين فى أدنى المراتب. وفى عصر النهضة، استعادت فكرة المصير ما كان لها من مكانة من قبل وارتبطت بالتنجيم، فقال فلاسفة عصر النهضة: إن حالة الكواكب التى يولد فيها الإنسان لا تعين كل دقيقة فى حياته تعيين ضرورة آلية، وإنما هى تحدد الخط الرئيسى الذى عليه تسير حياة الفرد. و فى القرن التاسع عشر ـ حيث أخذت فلسفة التاريخ وضعها وأصبح للتاريخ كيان فى مقابل الطبيعة ـ عادت فكرة المصير لتحتل المكانة الأولى، وظهرت العناية بهذه الفكرة عند شاعرين فى هذا القرن هما شلر وهيلدرلن اللذين تأثرا بفكرة المصير عند المسيحية، وقد تأثر هيجل بفكرة المصير عند هيلدرلن حيث شغل هيجل بفكرة المصير فى بداية حياته وحاول التوفيق بين فكرة المصير اليونانية وفكرة المصير المسيحية، وتظهر فكرة «حب المصير» فى أعلى صورها لدى نيتشه «فحب المصير» عنده هو أن يجعل الإنسان قوله «نعم» للوجود ـ كما هو ـ وقوله «نعم» للوجود ـ كما يريده هو ـ شيئا واحدا، أى أن يوحد بين إرادته وإرادة الوجود حتى يكون جوهر الاثنين واحدا.

ويأتى القرن العشرون لتصبح فكرة المصير من العمد الرئيسية التى تقوم عليها فلسفة التاريخ، حيث عالجها الفيلسوف الألمانى زمل فى كتابه «نظرة فى الحياة» حيث يرى أن المصير ليس قوة مطلقة السيطرة كل الإطلاق يخضع لها الإنسان خضوعا تاما ، فلا يكون موقفه بإزائها غير موقف سلبى خالص، وإنما المصير يحد من سلطة الذات أو الفرد. فلابد من تعاون وثيق بين المصير من ناحية، والفرد من ناحية أخرى.

هكذا يستعرض د. بدوى تاريخ فكرة المصير قبل أن يعرض لنفس الفكرة لدى شبنجلر الذى أكد على التعارض بين فكرة المصير ومبدأ العلية، وأخذ على السابقين جميعا أنهم لم يعترفوا بهذا التعارض اعترافا قويا واضحا . والمتأمل لهذا الجزء من كتاب د. بدوى عن شبنجلر ـ وهو الجزء الأول من كتابه الذى قسمه إلى ثلاثة أجزاء ـ يتبين أن د. بدوى اهتم بأن يضع أفكار شبنجلر فى سياقها التاريخى فالمثال السابق عن فكرة المصير يوضح لنا منهجه فى معالجة الأفكار، الذى يتضح

فى التتبع التاريخى للفكرة وذلك حتى يبين للقارئ تطور الفكرة، والجديد الذى قدمه لنا الفيلسوف الذى يتناوله بالدراسة. والحقيقة أن هذه الطريقة فى دراسة الأفكار تفيد القارئ العادى وأيضا الباحث المتخصص فى فهم الفيلسوف الذى يقرأ عنه أو يدرسه.

وفى الجزء الثانى من الكتاب الذى يعنونه د. بدوى بـ «روح الحضارة» يطرح الأفكار الأساسية لفلسفة التاريخ، هذه الأفكار التى يبدؤها شبنجلر أولا بنقده لآراء السابقين عليه فى كتابه تدهور الغرب، حيث يرفض شبنجلر التقسيم الثلاثى من قديم ووسيط وحديث، وهو التقسيم الذى قال به معظم فلاسفة التاريخ السابقون عليه، والذى ظهرت فيه الحضارات القديمة باهتة بجوار الحضارات الحديثة، تلك الحضارات التى أخذت مساحة كبيرة من الزمن فى تاريخ الإنسان، يأتى فيلسوف التاريخ الأوروبى ليضعها فى مكان صغير من تاريخ العالم، ويعلى من شأن حضارته التى تأخذ من حيز الزمن قدرا ضئيلا لا يتعدى المئات من السنين، بينما يولى الحضارات التى أخذت فى تحققها آلافا من السنين قدرا ضئيلا من الاهتمام، لا يوافق شبنجلر على هذا الظلم للحضارات القديمة ويرى أن كل حضارة فى تاريخ الإنسان، لابد وأن تأخذ وضعها كاملا على خريطة تاريخ الإنسان، فهى حضارات كان لها منجزاتها الخاصة وروحها الخاصة التي لا نستطيع أن نستبعدها فى زاوية بعيدة، بل نجلُّها ونضعها فى موضعها الصحيح.

والحقيقة أن د. بدوى وهو يعرض لهذه الجزئية من آراء فى فلسفة التاريخ نجده متحمسا لهذا الرأى، ومعه كل الحق فى تحمسه هذا، فالغرور الذى انتاب فلاسفة التاريخ الأوروبيين وغيرهم من فلاسفة التاريخ جعلهم يضعون الحضارة الأوروبية فى المركز من تاريخ الإنسان، وهذا يعد ظلما لكل الحضارات التى سبقت الحضارة الأوروبية الحديثة، سواء كانت حضارات شرقية قديمة، أو حضارة اليونان والرومان، أو حضارات العصر الوسيط كما يسمونها، بما فيها الحضارة العربية الإسلامية، التى كان لها دور كبير فى إحياء العلوم وبزوغ عصر النهضة فى أوروبا، والذى اعتمد إلى حد كبير على العلوم العربية الإسلامية، التى كان بها خلاصة العلوم

العربية والفارسية واليونانية أيضا، فكانت بذلك الجسر الذى عبر عليه الإنسان الأوروبى من عصور الظلام والتخلف إلى عصر النور والعلم والتقدم، الذى انتشر بعد ذلك فى كل دول أوروبا التى حملت مشعل الحضارة بعد أن سقط من العرب فى الأندلس.

إذا كان شبنجلر قد بدأ كتابه «تدهور الغرب» بعرضه للآراء السابقة عليه ونقده لهذه الآراء،فإن د. بدوى يبدأ عرضه لآراء شبنجلر بذكر الفكرة الأساسية فى فلسفة شبنجلر وهى فكرة الروح الأولية أو الظاهرة الأولية، والحقيقة أن شبنجلر يستقى هذه الفكرة أساسا من الشاعر الألمانى جيته وهو يذكر هذا صراحة فى كتابه «تدهور الغرب» فهذه الفكرة من أعمق الأفكار التى اكتشفها جيته بوجدانه المرهف فى سياق التاريخ، فقد رأى فى أنواع النبات المختلفة مظاهر عديدة ورموزا متنوعة لشىء واحد هو النبتة الأولية، كما رأى فى ورقة الشجرة الصورة الأولية لكل الأعضاء النباتية، ثم اتخذ من هذه الظاهرة التى شاهدها فى النبات رمزا للوجود العضوى الحى كله،[1] فقال إن هذا القانون نفسه ينطبق على جميع الكائنات الحية. وذلك فى الرسالة التى بعث بها إلى هردر معلنا اكتشافه الجديد لقد أخذ شبنجلر هذه الفكرة (الروح الأولية أو الظاهرة الأولية) وطبقها على الحضارات، فهو يرى أن التاريخ «دراما تتألف من عدد من حضارات جبارة، تنبجس كل حضارة منها بقوة بدائية من تربة الإقليم الأم حيث تبقى مشدودة إليه برسوخ وثبات، طيلة دورة حياتها، وتطبع كل واحدة منها مادتها وجنسها البشرى وصورتها الخاصة بطابعها، ولكل واحدة من هذه الحضارات فكرتها وعواطفها وانفعالاتها الخاصة وإرادتها وشعورها وموتها الخاص بها. وهنا يوجد ـ حقا ـ ألوان وأضواء وحركات لم تكتشفها أية عين فكرية بعد. وهنا تزدهر الحضارات والشعوب واللغات والحقائق والآلهة والأصقاع وتهدم وتشيخ، شأنها فى ذلك شأن أشجار البلوط والصنوبر والزهر والأوراق، لكنه لا يوجد جنس بشرى يهرم ويشيخ.

إن لكل حضارة إمكاناتها الجديدة الخاصة بها للتعبير عن ذاتها، هذا التعبير الذى ينشأ وينضج وينحل، ولن يعود أبدا».

هذه الفكرة ـ فكرة الروح الأولية التى تميز كل حضارة من الحضارات على حدة ـ يذكرها شبنجلر فى عدة مواضع من كتابه «تدهور الغرب» مؤكدا عليها وشارحا لها، موضحا كيف تتميز ـ مثلا ـ الموسيقى فى كل حضارة من الحضارات عن الحضارة الأخرى، بما يكشف عن الروح الأولية لهذه الحضارة أو تلك . كيف تكشف أيضا طريقة البناء وطرز المعمار فى كل حضارة عن روحها الأولية ، وكما يفصل شبنجلر فى شرحه للروح الأولية لدى كل حضارة يذكر د. بدوى فى كتابه عن شبنجلر كيف وجدت هذه الفكرة أولا عند جيته وكيف استقاها شبنجلر منه. حيث يعترف شبنجلر فى كتابه «تدهور الغرب» بتأثير كل من جيته ونيتشه عليه[٢] فهو يرى أن لجيته فلسفة من الطراز الأول. وموقفه بالنسبة إلى كنت كموقف أفلاطون بالنسبة إلى أرسطو، فأفلاطون وجيته يمثلان فلسفة الصيرورة والوجود الحى. بينما أرسطو وكنت يمثلان فلسفة الثبات والوجود الآلى المتحجر، الأولان يعتمدان على الوجدان، أما الآخران فعلى التحليل والعقل[٣]».

شبنجلر هنا ـ وفقا لرأى د. بدوى ـ فيلسوف حدس يعتمد على الوجدان، فهو أقرب للشاعر ولكنه ليس الشاعر الذى يلقى أبياتا من الشعر بل هو أقرب للشاعر في تأمله وإحساسه بالطبيعة من حوله ، هو لا يتأمل فى الطبيعة فقط، ولكنه أيضا يتأمل فى التاريخ ويحاول أن يستقى من تأمله للطبيعة والتاريخ أوجه الشبه بينهما، ولذلك كان التقاؤه الفكرى والروحى» بالشاعر الألمانى جوته الذى كان للوجدان عنده مكانة عالية، ويبدو أن جيته كان له تأثير كبير على بعض الفلاسفة الألمان الذين كان يدخل فى حوار معهم، وهذا ما يذكره هردر أيضا والذى تبادل مع جوته الكثير من الرسائل حول موضوعات فلسفية عديدة. هل هذا يشكل الروح الخاصة بالحضارة الألمانية، والتى تجعل مفكريها يتناولون بعض الموضوعات بروح واحدة، فعلى الرغم من عدم معاصرة شبنجلر لجيته، إلا أنه تأثر به فى أفكاره هل يشكل هذا خطا متصلا للروح الألمانية؟

لقد كان شبنجلر يرفض فكرة التواصل بين الحضارات، حيث يرى أن لكل حضارة خصوصيتها التى تشكلها روحها الأولية كما ذكرنا من قبل، ولكن هذا

الانقطاع لا ينطبق على الحضارة الواحدة فاللاحق فيها يتأثر بالسابق، وذلك لأنه نشأ فى نفس المناخ متأثرا بروحه الحضارية الخاصة، وهذا يبدو واضحا فى تأثر أفكار شبنجلر بكل من جيته ونيتشه.

والسؤال الآن هل يوافق د. بدوى شبنجلر على القطيعة بين الحضارات المختلفة أم يتفق معه فى أن لكل حضارة خصوصيتها التى تشكلها روحها الأولية وتجعلها بمثابة الجزيرة المنعزلة عن باقى الحضارات؟

الحقيقة أن بدوى فى هذا الجزء من كتابه والذى عنونه بـ«روح الحضارة» يعرض لأفكار شبنجلر عن الحضارة بدءاً من فكرته عن الروح الأولية وفكرته عن التشكل الكاذب، التى تكرس أيضا لفكرة خصوصية الحضارة، وتفسر التشابه الذى نراه أحيانا بين حضارة سابقة وأخرى لاحقة بأن هذا يحدث فقط فى بداية ظهور الحضارة الجديدة حتى تقف على أقدامها، فنجدها تتخلص من كل ما أخذته من الحضارة القديمة أو تشكله وفقا لروحها الخاصة، هو يعرض لأفكار شبنجلر دون أن يبدى رأيه الخاص فى هذه الأفكار أو يعقد بعض المقارنات بينه وبين غيره من الفلاسفة كما فعل وهو يعرض للجزء الأول من كتابه الذى عنونه بالثورة الكوبرنيقية، وهذا لا يقلل من قيمة الكتاب الذى ظهر فى وقت لم تظهر فيه أية معلومة عن شبنجلر فى الكتابات العربية، سوى ترجمة لكتاب شبنجلر «الأعوام الحاسمة» حيث ظهر هذا الكتاب فى عام ١٩٣٦، وهو كما نعرف لا يعتبر الكتاب الرئيسى لشبنجلر، وجاء كتاب د. بدوى عن شبنجلر عارضا لآرائه وأفكاره فى كتابه الرئيسى «تدهور الغرب» وهو ما كان يفتقده القارئ والدارس العربى وذلك فى عام ١٩٤٥، وقد كان هذا الكتاب هو المرجع بعد ذلك لكل من د. أحمد محمود صبحى الذى أفرد فصلاً عن شبنجلرفى كتابه «فى فلسفة التاريخ» كما ظهر بعد ذلك مقال عن شبنجلر فى مجلة (تراث الإنسانية) فى الستينيات من هذا القرن، وبذلك يكون كتاب د. بدوى هو أول كتاب يعرض لفلسفة شبنجلر موصلا أفكاره للقارئ العربى.

الميزةالثانية للكتاب هو أنه يحتوى فى نهايته على ببليوجرافية شارحة لكل مؤلفات شبنجلر، عناوينها وتواريخ صدورها، حرص فيها د. بدوى على أن يرتبها

تاريخيا من أول مؤلف له عن هيرقليطس سنة ١٩٠٤ وحتى آخر مؤلف له وهو إجابة عن سؤال وجه له عن «هل السلام العالمى ممكن»؟ ونشر سنة ١٩٣٦، وهذه المؤلفات هى اثنا عشرمؤلفا ما بين كتب ومقالات نلحظ من عناوينها اهتمامه بالتاريخ والسياسة والشعر والقصة والصياغة، وغيرها من المعارف الإنسانية، التى تبدو كلها فى كتابه الأساسى« تدهور الغرب» الذى يعد صورة يعرض فيها لكل اهتمامات الإنسان من فن ، علوم، وثقافة، وسياسة، وبناء ، وموسيقى، والذى يكشف عن فيلسوف للتاريخ يهتم بكل ما أنجزه الإنسان فى تاريخه الطويل معطيا لكل حضارة أهميتها من التاريخ الإنسانى.

فكأن د. بدوى كان له بهذا الكتاب فضل السبق فى عرض هذا الفيلسوف على القارئ والدارس العربى عرضا أمينا دون تدخل منه إلا فى بعض الأحيان، مشيرا إلى مقارنة بينه وبين غيره من الفلاسفة السابقين عليه أو المعاصرين له حول فكرة من الأفكار التى يطرحها، وبذلك تبدو أهمية هذا الكتاب فى كونه أول كتاب يتعرض بالدراسة لشبنجلر فى اللغة العربية ويساعد الباحث المتعمق فى الوصول إلى مفاتيح فهم هذا الفيلسوف .

يقع الكتاب فى ٢٤٣ صفحة من القطع الصغير وهو منشور بالقاهرة سنة ١٩٤٥.

«الوجود نسيج الأضداد ومحور الأضداد الصيرورة والثبات، فإذا ساد الثبات كان الوجود هو الطبيعة، وإذا سادت الصيرورة كان الوجود هو التاريخ»

«الحياة وقائع وأحداث، أما الموت فمعارف وحقائق... والطبيعة مجموع حقائق، بينما التاريخ تيار وقائع».

«الاتجاه هو الزمان لأن الاتجاه معناه استحالة الإعادة واستحالة الإعادة حد الزمان».

« الطبيعة سياقها القانون ورمزها الامتداد، بينما التاريخ سياقه المصير ورمزه الاتجاه، المكان ـ إذن ـ من شأن الطبيعة، أما الزمان فمن شأن التاريخ.»

«الطبيعة والتاريخ هما الإمكانيتان النهائيتان لتنظيم الوجود المحيط بنا فى صورة كونية»

«عرض المذهب الحيوى عند برجسون ودريس ماهية الحياة إذن فى المتتابع والمدة، أى فى الزمان، أما المادة فما هيتها المكان »

الميزة الثالثة تبنى بدوى لأفكاره وتطبيقها على الحضارة العربية الإسلامية.

obeikandl.com

الهوامش:

١ـ أسوالد شبنجلر : تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيبانى، منشورات دار مكتبة الحياة.
٢ـ تدهور الغرب، ترجمة الشيبانى مرجع سابق ص ٣٨.
٣ ـ شبنجلر ، د بدوى مرجع سابق ص ٦٦.

obeikandl.com